الإشتراكية الجزائرية بين النظرية والواقع الإجتماعي

د/ محمد مدان
قسم العلوم الاجتماعية
جامعة تلمسان

إن الاشتراكية كنظرية علمية واضحة المعالم محددة المبادئ والأهداف، رسمت من طرف مؤسسيها ومنظريها أمثال كارل ماركس ولينين، وتعتبر هذه النظرية من حيث مرجعيتها الثقافية، نظرية غربية، جاءت نتيجة لأزمة الرأسمالية العالمية. تتبلور معالمها، في صراع الطبقات، الذي ينتهي بسيطرة الطبقة العمالية، وبالتالي البروليتاريا، التي تسيطر على مقاليد الحكم، ثم تحقيق المرحلة العليا من الاشتراكية، ألا وهي الشيوعية، التي تقوض أركان الدولة في حد ذاتها.

إن الاشتراكية الماركسية هي إيديولوجية اقصائية، تهدف للقضاء على البرجوازية، وعلى قاعدة قوتها المتمثلة في الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وحرية السوق.

أما اشتراكية دول العالم الثالث، المستقلة حديثا، فتبدو– إذا ما قارناها مع النظرية الماركسية– غامضة ومبهمة، بل تتميز بانحرافها وزيغها عنها. لأن الماركسية، بصفتها نظرية غربية، تبدو غريبة عن هذه المجتمعات المتخلفة التي تتموقع ضمن المتخيل الجماعوي والموروثية التقليدية.

يرجع هذا حسب Jean Luca: "ليس لأن الأفكار تفتقر إلى الدقة كعنصر من عناصر الإيديولوجيا. لكن تطبيقها على وسط اجتماعي مختلف عن الوسط الاجتماعي الذي تبلورت فيه، يجعلها لا تستعمل بصورة مختلفة فحسب، لكن تعدل كفكرة ابتداء من اللحظة التي تتمفصل فيها حول الآليات المادية للوسط الجديد. (مثل العبارات المرتبطة بالاشتراكية كالعربية، الخصوصية، الإسلامية أو العلمية) "(1)

إن قوة الإيديولوجيا تكمن في السياق السوسيو–ثقافي الذي أنتجها. ولا تشذ الاشتراكية الجزائرية عن هذه القاعدة، لأن السلطة السياسية تستمد مرجعيتها من الإيديولوجية الوطنية بما تتضمنه من مبادئ جماعية ودينية وموروثية تقليدية.

إن الاشتراكية في سياقها الاجتماعي يجب أن تفهم كامتداد للإيديولوجية الوطنية، لهذا تتميز عن الماركسية بعبادتها للدولة وإرادتها في إدماج كل الشرائح الاجتماعية في جماعة.

لهذا تم تكييف هذه النظرية – بوعي أو غير وعي– مع الثقافة السياسية السائدة في المجتمع. نجدها أحيانا تلبس ثوب الوطنية وأحيانا تتماهى مع الإسلام ومرات مع مبادئ التضامن الوطني وعليه فهي " اشتراكية خاصة " حسب الخطاب السياسي الرسمي:

1 – الاشتراكية والوطنية :

بما أن الإيديولوجية الاجتماعية تهمين عليها الفكرة الوطنية، فقد عبرت الاشتراكية الجزائرية على هذه المبادئ، من خلال التأكيد على السيادة الوطنية وإلغاء الطبقات الاجتماعية والحفاظ على الملكية الجماعية للأرض:

فيما يخص السيادة الوطنية، فإن الاشتراكية في الجزائر، ليست نظرية وإنما أمل في الاستقلال وتطلع للسيادة الوطنية، التي انتهكت وسلبت طويلا من طرف المستعمر.وفي تحليله للاشتراكية الجزائرية يرى Bernard Cubertafond بأن: "التطلع إلى الاشتراكية والتطلع للاستقلال يتطابقان في الإيديولوجية الجزائرية " (2)

بعبارة أخرى، يمكن أن نستنتج بأن الاشتراكية في الجزائر، ليست تطلعًا لتغير سوسيو– اقتصادي تقوده الطبقة الكادحة، وإنما هي الأطروحة النقيضة للرأسمالية، التي هي إيديولوجية المستعمر، أي أن الاستعمار كان رأسماليا، فالدولة المستقلة حديثا، لا يمكن أن تكون إلا اشتراكية. انطلاقا من هذا، لا يمكن دراسة الاشتراكية في الجزائر بمعزل عن الظاهرة الوطنية، التي كرست كل جهودها للأمة كقيمة محورية تتموقع حولها كل القيم. أي أن الإيديولوجية الوطنية المتمسكة بالاستقلال والسيادة المطلقة، تعتبر الاشتراكية مظهرا من مظاهر هذه السيادة. و حسب تعبير Bernard Cubertafond: " يمكننا الحديث فيما يخص الجزائر عن عبادة للاستقلال، إذن عبادة السيادة، لأن السيادة في العلاقات بين الدول تعني الاستقلال. "(3)

كل مواثيق الدولة الجزائرية تؤكد هذه الأطروحة. كمقابل لاتفاقية إيفيان 19 مارس 1962، التي تمنح سيادة ناقصة للجزائر، تمت الموافقة على برنامج طرابلس ، ونجد في هاتين الوثيقتين المعارضة التقليدية بين القوة الاستعمارية التي تريد فرض مواقفها، والدولة المستقلة حديثا، التي تبحث عن الاستقلال الحقيقي بعض النظر عن المظاهر. فاتفاقية إيفيان تهدف إلى خلق دولة ليبرالية، أما برنامج طرابلس فقد أكد هدفا مضادًا تمثل في "الثورة الديمقراطية الشعبية": "تعني الثورة الديمقراطية الشعبية، التشييد الواعي للبلاد في إطار المبادئ الاشتراكية وتحقيق سلطة الشعب" (4)

أما الميثاق الوطني 1976 فكان مطابقا لبرنامج طرابلس: "إن كلا من مهام التحرير الوطني والتحرير الاجتماعي في عصرنا هذا متضامنان أساسًا، بحيث أن الرفض البات للاستعمار يفضي إلى رفض الرأسمالية .فعندما تدرك الجماهير بأن كلا من الاستعمار والرأسمالية مرتبطان أشد الارتباط، وأن أحدهما ما هو إلا انعكاس للأخر، عندئذ تنشأ الظروف التي تجعل الوعي الوطني يتحول إلى وعي اشتراكي".(5)

كمحصلة لكل هذا، نستخلص بأن الاشتراكية هي تطلع للاستقلال وأمل في تحقيق السيادة الوطنية.

* فيما يتعلق بالملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، فإن موضوع الإصلاح الزراعي، يعتبر من الثوابت التي تتماشى مع "وطنية ريفية" شكلت قاعدة المقاومة الوطنية الجزائرية، حركة استرجاع الأرض والمحافظة عليها وتوزيعها على الفلاحين. إن البناء الإيديولوجي في هذا الميدان يرتكز على ثلاثة درجات:

- استرجاع الأرض من الأجانب.
- إعادة توزيع الملكية الجزائرية.
- الاستغلال الجماعي.

ركز مؤتمر الصومام على المرحلة الأولى والثانية. أما برنامج طرابلس فقد كان صارما في تصفية القواعد الاقتصادية للاستعمار الزراعي.

وتجسد الإصلاح الزراعي على المستوى القانوني في قانوني التسيير الذاتي 1963، والثورة الزراعية 1971.

ارتبط الإصلاح الزراعي ارتباطا وثيقًا بالوطنية، لأن استرجاع الأرض يعني بسط السيادة الوطنية على الإقليم ولأن "الأرض تمثل العرض" حسب المثل الشعبي الجزائري.

فيما يخص الطبقات الاجتماعية، فإن الإيديولوجية الوطنية التي تهدف إلى إدماج كل الشرائح الاجتماعية في المجموعة الوطنية، فإنها تلغي صراع الطبقات، لأنه لا يجب تدمير الجماعة وتوافقها وانسجامها بهذا الصراع. يؤكد هذا أحمد طالب الابراهيمي بقوله: "إن الثورة التحريرية غير متأتية من صراع الطبقات الاجتماعية داخل البلاد، إنها المحصلة لكفاح شعب بأكمله ضد المحتل الأجنبي" (6)

على هذا الأساس، فإن الإيديولوجية الجزائرية لا تعترف إلا بالصراع مع الآخر أي مع الأجنبي، أما الجزائريون فهم متحدون برباط عضوي. لهذا فإن كل شريحة تجد نفسها في المجتمع، وأن مهام "الثورة الديمقراطية" هي من الضخامة، ما يتعذر على طبقة واحدة إنجازها: "والواقع أن القوى الاشتراكية في البلدان النامية لا تقودها الطبقة الكادحة دائما، لأنها لا تزال قليلة العدد. وإنما تقودها طليعة تتكون من مجموع الوطنيين الثوريين ومن بينهم العمال، الذين يقومون بدور متزايد الأهمية".(7)

خلاصة القول، أن الاشتراكية الجزائرية تتناقض مع النظرية الماركسية في إلغائها لصراع الطبقات، وتتموقع ضمن الإيديولوجية الاجتماعية المبنية على وحدة الجماعة.

2) الاشتراكية والإسلام:

كما تمد الاشتراكية في الجزائر جذورها في الإيديولوجية الوطنية، فإنها تنهل من المبادئ الإسلامية، لأن الإسلام ليس مجرد عبادات وإنما مجموعة من السلوكات، إنه ثقافة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

يوجد مناخ في الجزائر يضبط العلاقات الاجتماعية، لهذا فإن القرارات الاشتراكية يجب أن لا تتعارض مع الإيديولوجية الاجتماعية التي من أهم مقوماتها الإسلام.

إن الثقافة الإسلامية تفرض أن تكون الاختيارات الاشتراكية مؤسسة على مبادئ: الجماعة، المبدأ الأخلاقي ومبدأ التوازن بين الفئات الاجتماعية.

هنا تكمن خصوصية الاشتراكية الجزائرية التي يلح عليها الخطاب الرسمي:

– عبر أحمد بن بلة في حديثة لحصة شاهد على العصر التي تبثها قناة الجزيرة، أنه لما لجأ أثناء فترة حكمة إلى بعض التدابير الاشتراكية لم يجد في ذلك ما يتعارض وإسلامه. وقد أطلق مصطلح" الاشتراكية القرآنية " على التجربة الجزائرية.(8)

– في عهد بومدين، كانت كل قرية اشتراكية تتوسطها منارة المسجد كدليل على الارتباط بالإسلام.

كخلاصة لهذا البحث نستنتج أن الاشتراكية الجزائرية بشذوذها عن النظرية العامة – خاصة إلغاء صراع الطبقات– تعتبر امتدادًا للإيديولوجية الوطنية المعبر الحقيقي عن ثقافة المجتمع الجزائري.

الهوامش:

1. LUCA Jean et Jean Claude VATIN- L'Algérie politique (Institutions et Régime) Presse de la fondation nationale des sciences politiques- Paris, 1975- p 249.
2. Cubertafond Bernard - La république Algérienne démocratique et populaire- ed .A.Bentemps- l'imoge - 1979 p33.
3. Ibid – p 105.
4. Extrait du projet de programme de Tripoli , Cité par M'hamed Yousfi (Le pouvoir 1962-1978) – ed SERRAGRAPHIE – Alger 1992 p 159.

5. الميثاق الوطني 1976- طبعة مجلة الأصالة – الجزائر – 1976.

6. El Ibrahimi Ahmed Taleb – de la décolonisation à la révolution culturelle - SNED- Alger- 1973- p228.

7. الميثاق الوطني 1976- مرجع سابق – ص 31و 32.

8. الخبر – يومية وطنية – 08 فبراير 2007.